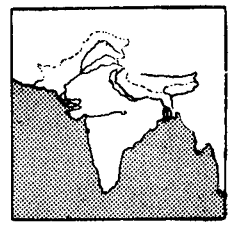
بين العرب والهند قديماً

بقلم الدكتور مراد كامل

● الملاحة فى بلاد العرب قديماً



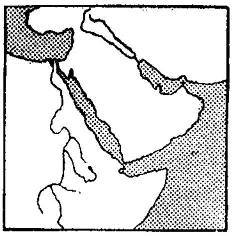
صنع العرب القوارب ، قبل بزوغ التاريخ بوقت طويل، من الجلود أو جذوع الأشجار المجوفة أو غير ذلك من مواد ملائمة ؛ وأخذوا يجوبون المياه الهادئة بالمجداف القصير ، يصيدون السمك ويغوصون طلباً للؤلؤ .

ثم أخذت الملاحة تتطور حين أقدم العرب على التوغل فى البحر ، فأقاموا الصارى والشراع ، ووكلوا أمرهم إلى الرياح فى البحر العريض . حدث هذا على شواطئ البلاد العربية قبل التاريخ ؛ والراجح أن ألواح هياكل السفن لم تكن تثبت بالمسامير بل تشدّ بحبال من ليف .

ولعل ما رأيناه أخيراً فى مركب الشمس من طريقة ضم الألواح الخشبية إلى بعضها بالحبال فحسب ، يدل على شيوع هذه الطريقة وكفايتها منذ الدولة القديمة فى مصر . وقد لاحظ الإنسان أن الخشب يتمدد ، والحبال تتقلص ؛ وبهذا يشتد ضم الألواح إلى بعضها تلقائيًّا .

وساعد الموقع الجغرافى على تطور الملاحة من شواطئ الجزيرة العربية . وتحدّ الجزيرة من ثلاث جهات بخط ساحلى طويل يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج الفارسى ، وتمتد بالقرب من هذه الشواطئ أخصب بقاع الجزيرة ، وهى : اليمن وحضرموت وعُمَان ، والاتصال بينها بحراً أشد هولا من عبور الصحارى والجبال التى تفصل بينها برًّا .

وكانت التجارة مع البلاد المجاورة تجد حافزاً إلى الغرب فى الشواطئ الطويلة التى يتميز بها شمال إفريقية الشرقى ، وحافزاً إلى الشمال الشرقى فى شواطئ إيران المديدة ، وكان شاطئ إيران شرقاً يؤدى إلى الهند ، وكانت الرياح الموسمية معواناً فى آخر الأمر على الرحلة إلى إفريقية والهند معاً .



والأهم من هذا كله أن البحر الأحمر والخليج الفارسى — يكملهما النيل والفرات ودجلة — ممرّان طبيعيان للملاحة بين حوض البحر المتوسط وشرق آسيا ، فكان العرب يطلُّون من كلا جانبى جزيرتهم على طريقين من الطرق التجارية الكبيرة فى العالم .

وكان لا بد من التغلب على عقبات بعينها ، حتى يمكن الاستفادة بمزايا هذا الموقع الجغرافى الممتاز .

فالجزيرة العربية ليس بها الخشب الصالح لبناء السفن قوية الاحتمال ، وليس بها الحديد لطرق المسامير ، وليست فيها أنهار صالحة للملاحة ، وما فيها من الموانئ الصالحة قليل . فأقام العرب طرقاً للقوافل على طول الساحل الغربى من جزيرتهم ، بدلا من أن يواجهوا أهوال البحر الأحمر . ولكن الأحوال فى الخليج الفارسى كانت أوفق مع شحة فى الماء الصالح للشرب . وكانت القرصنة تجد حافزاً فى كثرة الجزر وفقر سكان السواحل ؛ ولهذا لم تكن عُمَان وثيقة الاتصال بأرض الجزيرة وإيران .

وفى المحيط الهندى كانت السواحل المؤدية إلى الهند خراباً ، ولم يستطع الاستعانة بالرياح الموسمية لعبور البحر العريض بين الجزيرة والهند وشرق إفريقية ، إلا ريثما يمكن بناء سفن تستطيع احتمال قوة هبوبها .

وكان لا بد من التغلب على هذه العقبات الطبيعية بالحيلة والاختراع . وكان العرب على صلة دائمة بمراكز الحضارة القديمة فى مصر وغربى آسيا والهند ، فكان عليهم أن يأخذوا عنها ما عرفته من تحسينات فى بناء السفن وتجارب فى الملاحة ، وكان لا بد من جلب المواد اللازمة لبناء السفن القوية من الهند .

● نشاط العرب فى الملاحة قبل الإسكندر

لا يعرف شيء على وجه التحقيق إلى الآن عن نشاط العرب فى الملاحة قبل الفتح الهليني للشرق الأدنى . ولكن ما وصل إلينا من آثار ، يدل على أن البلاد المجاورة للجزيرة العربية ، كانت فى جميع العصور التاريخية على اتصال بها بحراً .

فالنقوش الشومرية والنقوش البابلية التى ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد تتحدث عن صلات بحرية بين شعوب ما بين النهرين وبين البحرين وعُمان ، وتتحدث عن بناء السفن فى عمان .

وكذلك كانت السفن المصرية منذ عهد «ساحورع» فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد تمخر البحر الأحمر ، ولها رحلات إلى الشاطئ الغربى من الجزيرة العربية . وتسمى النصوص المصرية القديمة هذه السفن بسفن جُبَيل ؛ أى أنها صنعت على نمط سفن هذه المدينة الفينيقية .

وفى الألف الأول قبل الميلاد قامت مملكة أرض البحر التى كانت تسيطر على منطقة تمتد من قرب مصب الفرات إلى البحرين ونشطت الملاحة فى عهد الفرس ، وفتحوا آفاقاً جديدة للتطور الإقتصادى حين وحدوا غرب آسيا كله ومصر فى إمبراطورية ثابتة الدعائم ، فقام دارا الأوّل فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بربط فارس بالهند ومصر بحراً وبرّاً ، ونظم فى سبيل هذا الغرض بعض الأعمال البحرية ، فبعث بأسطول فى نهر السند جنوباً ، طاف حول الجزيرة العربية إلى مصر . وكانت هذه السفن تستعين بالملاّحين العرب ، وقام العرب بدور ملموس فى الحياة البحرية عدة قرون قبل الإسكندر .

● الملاحة فى الخليج الفارسى فى العصرين الهلّينستى والرومانى .

وحّد الفرس بين شواطئ الجانب الشرقى من البحر المتوسط وسواحل خليجى المحيط الهندى ، وزاد اليونان من استغلال منافع هذه الوحدة فى الميدان الاقتصادى ، وبدّدوا بحبهم للاستطلاع الظلام الذى اكتنف الجزيرة العربية زمناً طويلا . ونشطت التجارة فى الخليج الفارسى على يد أهل « جرهة » وهى مدينة على ساحل « الأحساء » . وكانوا يتجرون عن طريق القوافل مع جنوب الجزيرة العربية ، كما كانوا يتجرون بحراً مع « الهند » و « سلوقية » على نهر الدجلة ، وظلت تجارة الخليج الفارسى ، طوال عهد الإمبراطورية الرومانية ، فى أيدى مدن صغيرة تقوم بدور الوسطاء ، ويشغل العرب فيها مركزاً مرموقاً . وأهمها مدينة « المحمَّرة » على الخليج الفارسى « والأبُلَّة » ثم مدينة « تَدْمُر » فى الصحراء السورية . ويقول « بلينى » إن المحمّرة كانت فى عصره ؛ أى فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى ، مدينة فى بلاد العرب على حدود « فارطيا » وهى التى سميت خراسان فيما بعد .

وكانت كلٌّ من المحمَّرة والأبلّة تتجر أيضاً مع الهند ، فكانت السلع التى تصدرها « الأبلة » إلى اليمن تصدَّر أيضاً إلى « بريجازا » وهى « بروتش » الآن فى خليج كمباى . وكانت السفن الكبيرة تعود من هناك محملة بالنحاس والآبنوس ومختلف أنواع الخشب .

وهكذا قامت في تلك الفترة تجارة بحرية منتظمة من الخليج الفارسي إلى مصب نهر « نيربُدّا » من جهة، وإلى جنوب غربي الجزيرة العربية من ناحية أخرى. ولعب عرب الخليج دوراً رئيسياً في هذه التجارة، ولكن العصر الذهبي للخليج الفارسي لم يكن قد حان بعد، فقد كانت الصدارة في تلك الأيام للبحر الأحمر.

وكانت مدن بلاد العرب وسومطرة مراكز التجارة بين مصر والهند في جميع صورها.

وكان العرب يقطعون الرحلة من الموانئ العربية إلى الهند محتذين شواطئ بلاد العرب وإيران. وكانوا كذلك يفيدون من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، كما يفعلون اليوم، وكما كانوا يفعلون في القرون الوسطى.

ويحدثنا صاحب كتاب « بريبلوس » عن تجارة العرب عبر البحار في منتصف القرن الأول الميلادي: يصف لنا سواحل الجزيرة العربية والبلاد المحاورة لها، وهو يبدأ بالشمال الغربي من الجزيرة، فيصف « ليوكي كومي » — وهي الحوراء — بأنها سوق للنبط في الملاحة العربية المحلية، ثم يصف اليمن وميناء « موزا » — وهي « موزع » الحالية — بالقرب من « مخا ». ثم يقول:

« . . . والمكان كله مزدحم بأصحاب السفن والملاحين العرب، وفي شغل شاغل بشئون التجارة؛ فهم يتجرون مع الساحل البعيد [يقصد أرتيريا والسومال] ومع بريجازا [أي الهند]، ويبعثون بسفنهم إليهما ».

ثم يصف « أوكيليس » عند مضيق باب المندب. وهي مكان تتزود فيه السفن بالماء في طريقها إلى الهند.

وتأتي بعد هذا عدن، والميناء الحقيقي الوحيد في شبه الجزيرة العربية، وكانت في العصور القديمة السوق الذي تتبادل فيه السلع الهندية والمصرية.

ثم يتحدث عن «كاني» وهي التي يسميها النبي حزقيال «كنيّة»، وهي حصن الغراب الآن؛ ويقول عنها:

« هي سوق لكل اللبان الذي يزرع في البلاد، يؤتى به إليها على ظهور الجمال، وفي الأرمات المحلية المصنوعة من الجلد، وفي القوارب. ولهذا المكان أيضاً تجارة بمدن الساحل البعيد ومع بريجازا وسكيثيا [أي السند] وعمانة وفارس المجاورة لها ».

ثم يذكر «مُسْخا»، وهي الآن خور مقْشي غرب رأس فرتك. ثم جزيرة سوقطرة التي يقول عنها إنها تابعة لبلاد العرب الجنوبية ويسكن فيها تجار من العرب والهنود واليونان.

ويدل هذا الوصف على أن سفناً تجارية عربية كانت تقوم بتجارة منتظمة من « موزا » و « كاني » مع « بريجازا » جنوباً، ويحتمل أنهم قصدوا ساحل مالابار طوال عدة قرون للحصول على الخشب الذي كانت تبنى منه سفنهم.

- الملاحة في عصر الساسانيين والبيزنطيين

شجع الساسانيون الملاحة الفارسية، فأخذوا في تأسيس عدة موانئ بحرية ونهرية منذ أوائل القرن الثالث الميلادي. وفي أوائل القرن الرابع نجد عرب البحرين يعبرون الخليج الفارسي للإغارة على الإمبراطورية الفارسية، ونجد بعد ذلك بسنوات سابور الثاني الملك الساساني يردّ على هذه الحملة بمثلها فيهاجم سكان البحرين.

ويصف المؤرخ أميانوس ماركيلينوس في أواخر القرن الرابع الميلادي الخليج الفارسي بأنه كان يعجّ بالملاحة، ويحدثنا عن العرب بأن لهم هناك عدة موانئ محمية ومراسي، وأنهم قادرون على استغلال ثروات البر والبحر معاً.

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي لاحظ «فارهن» الصيني وجود الكثير من التجار السبئيين في سيلان. وربما كان التقاء السفن الصينية بالسفن العربية في موانئ سيلان.

ساءت الأحوال في اليمن في القرن السادس

الميلادى فضعفت الملاحة؛ على حين نشطت على الساحل الشرقى ، فكان للبحرين وعُمان ملاحتهما وكانتا على صلة قوية بالإمبراطورية الساسانية . واعتنق الكثير من عرب أزْد فى عمان : المزدية . ولذلك نجد العرب يشنّون الغارات البحرية من عُمان والبحرين عقب ظهور الإسلام.

- الملاحة فى العصر الإسلامى

احتل العرب فى العصر الإسلامى سواحل الخليج الفارسى كلها ، فوحّدوا فى إمبراطوريتهم بين بلاد غربى آسيا وبين مصر . وكان خلفاء الإسكندر قد شطروا هذه المنطقة الاقتصادية شطرين ولم يعد الخليج الفارسى والبحر الأحمر طريقين متنافسين لبلوغ روما أو القسطنطينية ؛ وإنما كانا طريقين متساويين يسلك كلٌّ منهما لبلوغ ما قاربه من أرض الخلافة . وقد استخدما جنباً إلى جنب طوال احتفاظ الإمبراطورية الإسلامية بوحدتها . وراجت التجارة بين الخليج الفارسى والهند والصين فى عهد العباسيين .

وأظهر العرب طوال عدة قرون نشاطاً غير مألوف فى جميع ميادين الحياة ، وتناول هذا النشاط الحروب والرحلات والتجارة .

كان المحيط الهندى على عكس البحر المتوسط بحر أمن وسلام ، فقد كانت سواحله الغربية تحت سيطرة المسلمين ؛ ولهذا اتسعت التجارة فى هذا المحيط فى العصر الإسلامى اتساعاً عظيماً . وكان الطريق البحرى ، الممتد من الخليج الفارسى إلى كانتون ، أطول طريق استخدمه الإنسان على نحو منتظم قبل التوسع الأوروبى فى القرن السادس عشر ، فسلوكه عمل جليل جدير بالعناية والاهتمام .

وقد شجع الخلفاء العباسيون امتزاج رعاياهم العرب بالفرس فى وحدة إسلامية لسانها العربية . ولهذا نرى فى القرن التاسع الميلادى أن الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الأقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس . وقد كان ثمّة دائماً ، بطبيعة الحال ، عرب من سكان الجزيرة العربية يبحرون من موانئ الخليج الفارسى ، ولكن زاد الآن المتكلمون بالعربية زيادة كبيرة باعتناق أهل فارس الإسلام واستخدامهم اللغة العربية فى أغراض الدين والأدب والأعمال الرسمية والتجارة .

وكانت صلة العرب بالبلاد الشرقية قبل الإسلام عن طريق قبيلة طيّ . ولهذا سمّى السريان العرب باسم الطائيين « طيبا » ، وكذلك أطلق الصينيون على العرب « تا - شى » وهى من الفارسية «تا - زك» أى طائى .

ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى كانت هناك ملاحة مباشرة إلى الهند والصين ، وأخذ جغرافيو العرب وأصحاب الرحلات يدوّنون ملاحظاتهم فى كتب وصل إلينا منها شىء . وتنطوى أوصافهم على معلومات قيمة عن موانئ المحيط الهندى وسواحله .

يصف لنا ابن خرداذبه ، فى كتابه «المسالك والممالك» الذى وضعه حوالى عام ٨٥٠ م ، مراحل الطريق من الخليج الفارسى إلى الهند . وفى عام ٨٥١ م ألّف كاتب مجهول مجموعة من الأخبار رواها التجار عن الطريق البحرى من سيراف إلى كانتون ، وعن عادات أهل الصين والهند . ويعرَف هذا الكتاب تحت عنوان « أخبار الصين والهند » وينسب إلى تاجر يدعى سليمان ؛ ورد ذكره فى الكتاب . وحوالى سنة ٩١٦ م ، علّق رجل من سيراف ، هو أبو زيد الحسن بن اليزيد ، على الكتاب ، وأضاف إليه معلومات استقاها من أحاديثه مع التجار ورجال البحر فى سيراف .

وكتب المسعودى حوالى سنة ٩٤٧ م كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ويزهى صاحبه زهواً واضحاً بما يوليه من اهتمام بالبحر والملاّحين ولغتهم . وهو يمدنا بكثير من المعلومات الجغرافية وغيرها ، اعتمد فى بعضها على مصادر متقدمة اندثر

معظمها ، وفى بعضها الآخر اعتمد على ما خبره بنفسه فقد زار الهند وشرقى إفريقية . وله كتاب « التنبيه والإشراف » الذى ألّفه سنة ٩٥٥ م ، وقد تعرض فيه أحياناً إلى أخبار الهند . وكتب المقدسى كتابه عام ٩٨٦ م ، وفيه يقص ما شاهده أثناء طوافه بسواحل الجزيرة العربية .

وغير هؤلاء : اليعقوبى وقد كتب فى سنة ٨٩٢ م ، كتاب «البلدان» ، وابن الفقيه حوالى سنة ٩٠٢ م « مختصر كتاب البلدان » ، وابن رسته حوالى سنة ٩٠٣م كتاب «الأعلاق النفيسة» ، والإصطخرى حوالى سنة ٩٥٠ م كتاب «مسالك الممالك» ، وابن حوقل حوالى سنة ٩٥٤ م كتاب « صورة الأرض » . وهذه الكتب جميعاً على نمط واحد ، ينقل كتاب عن كتاب .

وهناك كتاب آخر له أهمية فريدة هو « كتاب عجائب الهند » ؛ كتب أكثره بعد منتصف القرن العاشر بقليل ، وزيد عليه فى عصر متأخر . وهو ينسب إلى « بُزُرْك بن شهريار » من مدينة رام هرمز .

كان المؤلف ربّاناً من ربابنة البحر ، جمع القصص من أفواه غيره من الربابنة والتجار فى سيراف والبصرة وعُمّان : قصصاً عن الهند والشرق الأقصى وشرق إفريقية ، وفى ثنايا القصص الطويلة تبدو التفصيلات العادية متسمة بالصدق .

وحفظ لنا المروزى فى كتاب يرجع إلى حوالى سنة ١١٢٠ م بعض التفصيلات الهامة عن العصور المتقدمة .

ويمكننا استناداً إلى أوصاف ابن خرداذبه وكاتب أخبار الصين والهند وآخرين متأخرين عنهما بعض الشيء ، أن نكوّن صورة عن الطريق الذى كان يسلكه القاصدون إلى الهند والصين فى منتصف القرن التاسع الميلادى .

فالبصرة والأبُلّة وسيراف كانت منتهى مطاف السفن القادمة من الصين والهند . وكانت البصرة مركزاً تجاريًّا كبيراً ، ولم تكن السفن الكبيرة تستطيع بلوغها ، فكانت ترسو فى الأبلّة وكان بها أحواض سفن . فكانت هناك مضاحل خوّانة فى رأس الخليج الفارسى ، وكثيراً ما تحطمت عليها السفن . وأسهمت هذه المصاعب فى نمو سيراف على ساحل إيران جنوب شيراز .

كانت سيراف على شاطئ حارٍّ مجدب ، شأنها شأن عدن ، وكانت تعيش على ما يرد إليها من موئن عبر البحر ، وكان الفضل فى وجودها لتجارتها البحرية . وقد بلغت هذه التجارة من الازدهار مبلغاً جعل من سيراف منافساً للبصرة فى الغنى والثورة . ويصف الجغرافيون دور الترف التى كان يقيم فيها تجارها وأصحاب سفنها ، وكانت مبنية من طوابق من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق إفريقية . ويحدثنا صاحب أخبار الصين والهند بأن الشحنات كانت تجلب عامة فى سفن صغيرة من البصرة وغيرها من موانئ الخليج الفارسى إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة فتقلها إلى الصين . وكانت الصادرات إلى الهند والشرق الأقصى تتكون من منسوجات غالية من التيل أو القطن أو الصوف ، ومنها السجاجيد الصغيرة ، ومن المصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب أو الفضة .

كان أمام السفن طريقان إلى الهند : فكانت تستطيع التوقف فى « صحار » و « مسقط » وهما ميناءان على ساحل عُمّان يعجّان بالحركة والحياة ، فتتزوّد بقدر من الماء ، ثم تمخر المحيط الهندى مباشرة إلى « كولم ملى » فى جنوب مالابار . وكانت السفن تستطيع أيضاً الرحلة على طول السواحل ، مارّة بجزيرة « قيس » و « هرمز » القديمة و « تيز مُكران » و « الدّيبل » و « المنصورة » أو غيرهما من موانئ السند ، وكانت السفن التى تسير على طول السواحل تغادر المياه الإسلامية إذ تغادر السند . ولهذا لا نعلم

إلا القليل عن موانئ ساحلى بومباى ومالابار . ولكن لا ريب فى أن ساحل مالابار كانت له أهمية اقتصادية لدى المسلمين ، فقد كان مصدر خشب الساج الذى كانت تصنع منه السفن ، وكانت جزر ملاديف ولاكاديف مورداً لبعض مواد بناء السفن ، تستخرج مما فيها من أشجار جوز الهند . ومن « كولم ملى » أو ميناء آخر على ساحل مالابار يسمى «بُلّـين» ، كانت السفن تسير إلى سيلان جزيرة الياقوت . وكانت السفن الصغيرة تستطيع السير على طول السواحل عابرة مضيق « بولك » ومعرِّجة على شواطئ خليج البنغال .

● أثر العلاقات التجارية بالهند

اختصت الهند منذ أقدم العصور بوفرة إنتاجها النباتى والحيوانى والمعدنى وتنوعه ، كما أنها عرفت بجودة الصناعات المختلفة التى ترتكز على ذلك النتاج الطبيعى . ثم هى تجاور بلاد الصين التى اختُصَّت بطائفة أخرى من الحاجيات والكماليات التى لم يكن للعالم الغربى بدٌّ منها ؛ فنشأت «التجارة الشرقية» التى تنافس عليها الفرس والعرب والروم ، وأخيراً أهل أوروبا من برتغاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليز .

لقد كان لهذه التجارة أثرها الفعَّال فى مداولة الأيام بين الناس ، وكان لهذه العلاقات التجارية بالهند تأثير فى حضارات الفرس والعرب والروم فى العصور القديمة والوسطى .

كان العرب ، بطبيعة مركزهم الجغرافى ، أكثر الشعوب اتصالا بالهند ، وأكثرهم حرصاً على الاحتفاظ بدورهم فى حركة الاتجار مع الهند .

غير أنّا لم نحصل على معلومات وافية عن نشاط العرب فى هذا الميدان، وذلك فيما يخص العصور السابقة للإسلام ؛ ولعل فى الرجوع إلى لغة العرب وآدابهم ومقارنتها باللغات الهندية ، ما يعوِّض عن هذا النقص بعض الشيء . لقد قصَّر العلماء العرب — أو قل قصُر علمهم — وهم يبحثون فى المعرَّب والدخيل فى العربية، أن يصلوا إلى أصل هذه الألفاظ فى الهندية ، بل اقتصروا على إرجاعها إلى أصل فارسى ، وإن أرْتِجَ عليهم عدُّوها غريبة . ولكن أمكن لعلماء اللغة فى العصر الحديث إرجاع الكثير من الألفاظ المعرَّبة والدخيلة فى العربية إلى أصولها الهندية ، واستدلوا بذلك على أثر الحضارة الهندية فى الحضارة العربية . ونذكر بعض ما عرفه العرب :

الأحجار الثمينة : الماس ، والبلور ، والسنباذج .

الأفاوية وأنواع الطيب : البهار ، والأبزاز ، والكافور ، والمسك ، والصندل ، والعود — الهندى والمندلى والقمارى والصِّنفى والقامرونى — والألْوَة ، والهيل ، والسنبل ، والزنجبيل ، والقسط ، والفلفل ، والقرنفل ، والهرْد .

العقاقير : الإطريفل ، والهليلج ، والبليلج ، والبلاذر ، والبَيْش .

الأخشاب : الساج ، والساسم ، والقنا ، والوشيج ، والسراء ، والبان .

الأصباغ : الأرجوان ، والقرمز ، والنيلج ، والبقّم ، والصرف .

المنسوجات : الشيت ، والفوطة ، والشال ، والنمط ، والكنبار .

الفواكه : النارجيل ، والموز ، والأترجّ ، والليمون ، والنارنج ، والتمر الهندى .

الحيوانات والطيور : الفيل ، والكركدّن ، والطاووس .

المعادن : الآنُك ، والأسرنج ، والكلس ، والتنكار ، والرانج .

المصنوعات المختلفة : الفانيذ ، والأنبجات ، والداذى ، والنعال الكنباتية ، والشلطة ، والشلقاء ، وكأس ، وسطل ، واللقن .

وذكر أبو زيد السيرافى فى حديثه عن الهند ، بعض هذه المنتجات فقال :

« بحر الهند والصين الذى فى بطنه اللؤلؤ والعنبر ، وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب ، وفى أفواه دوابه العاج ، وفى منابته الآبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الأفواه الطيبة الزكية ، وطيوره الفقاعى [أى الببغاوات والطواويس] ، وخرشات أرضه الزباد ، وظباء المسك ، وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره » .

وكان لعلاقة الهند بالبلاد العربية قديماً أن تأثرت حضارتها فى بعض النواحى بحضارات الجزيرة العربية قديماً : فالخط البراهمى ، الذى تفرعت منه الخطوط الهندية المختلفة ، إنما دخل الهند عن طريق الساحل الغربى على أيدى تجار من الجزيرة العربية حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وهو سامىُّ الأصل اشتقّ من الحرف الفينيقى .

وكذلك أخذ أهل الهند عن أهل بابل ، نظام منازل القمر الذى اشتهر به أهل الهند .

كما اقتبس أهل الهند نظام التعامل بالعملة الفضية من أهل بابل ، وقد استمر به التعامل إلى عهد قريب .

وقد أخذوا ، فيما أخذوا عن أهل بابل ، بعض الأوزان مثل « المن » .

وقد أخذ أهل الهند عن العرب الشراع المثلث ، الذى اختصت به السفن العربية . وكانت الهند تستخدم الشراع المربع كما نستدل على ذلك من الصور على الآثار . والشراع المربع يمتاز بالرسوخ والثبات على السفينة الكبيرة وفى الأنواء .

ولكن الشراع المثلث لازم لتحويل مجرى السفينة بالتحول الدائرى ، وطى الشراع إذا اشتدت الريح . وقد جاء العرب بالشراع المثلث إلى البحر المتوسط ، ويعدُّ هذا من فضل العرب ، فلولا هذا الشراع ما تمَّت رحـلات المحيط التى قام بها المكتشفون العظام . فقـد كانت السفن فى الشمال قبلا تعتمد اعتماداً تامًّا على الريح المواتية ، وكانت عاجزة عن أن تسـير فى مواجهة الريح . ولكنها استطاعت بفضل الشراع المثلث أن تقطع رحلات المحيط الطويلة التى أسفرت عن اكتشاف كولمبوس لأمريكا ، ومرور دياز حول رأس الرجاء الصالح ، وفتح ڤاسكودا جاما أبواب التجارة مع الهند .

● فجر الصلات العلمية بين الهند والعرب

لم يكن هناك اسم شامل لشبه القارة الهندية الباكستانية ، بل كان لكل إقليم اسم يعرف به . وكان نهر « السند » الذى يذكره العرب القدماء باسم « مهران » معروفاً باسمه الحالى ، إلى أن امتدّ إليه نفوذ أهل فارس فى العصر القديم فسمّوه «هندهو» ؛ جرياً على قاعدة لغوية فى إبدال السين فى اللغة السنسكريتية بالهاء فى الفارسية القديمة . ثم جاء العرب فأقرُّوا اسم « السند » للأراضى الواقعة على ضفّتى ذلك النهر ، وأطلقوا اسم « الهند » على ما وراءها .

عرف العرب بلاد الهند قبل الإسلام وأحبوها إلى حد أنهم اتخذوا من اسمها اسماً لنسائهم ، كما عرفوا عطورها وأحجارها وسيوفها وثمارها . ولما كانت تجارتهم عن طريق البحر ، كان من الطبيعى أن يقتصر اتصالهم بأهل الشاطئ ، وبخاصة الساحل الغربى والجنوبى . وقد أطلق العرب أسماء الأماكن التى تستورد منها المنتجات على المسميات ، منها المندل وهو العود المستورد من « كورومندل » ، والهيل — وهو حَبُّ الهان — من رأس هيلى بجنوب الهند بالقرب من كورومندل .

ولما جاء الإسلام عرف — عرب عُمَان والمناطق الساحلية المجاورة — كيف يفيدون من صِلاتهم التجارية القديمة ، فأخذوا فى شن الغارات البحرية بغية تأسيس حكمهم على مواقع من ساحل السند ، وكجرات ، وتهانة (تانه) بالقرب من بومباى ، وبهروج (بروص) ، وديبل بالقرب من كراتشى .

حدث ذلك فى عهد عمر بن الخطاب وتكررت هذه المحاولات فى عهد عثمان بن عفان . ولما تم للعرب فتح فارس وصارت حدود دولتهم تتاخم حدود مملكة السند الغربية ، وبدأ الاحتكاك بين القراصنة والتجار العرب ، وحدث أن استولى القراصنة بالقرب من ديبل ، على مركب كان ينقل إلى العراق عدداً من الأرامل واليتامى لبعض التجار العرب الذين وافاهم الأجل فى جزيرة سيلان ، فطلب الحجاج بن يوسف الثقفى من «داهر» ملك السند معاقبة المعتدين وتسليم الأسرى ، فاعتذر داهر بعجزه عن تنفيذ طلب الحجاج ؛ ولم يجد الحجاج بداًّ من إيفاد ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى لغزو السند .

دخل محمد بن القاسم السند فى سنة ٨٩ هجرية ، ووفِّق فى إنجاز مهمته . ثم تمكن فى مدة خمسة أعوام من القضاء على مملكة داهر وفتحها للمسلمين من منابع نهر « جهيلم » بكشمير فى الشمال إلى البحر فى الجنوب ، إلى حدود مملكة قنوج (كنوج) بالقرب من « ملتان » وحدود «كجرات » فى الشرق .

وظل إقليم السند منذ ذلك الحين جزءاً من الدولة الأموية ، وتعاقب على حكمه عدد من الأمراء العرب ، سعى بعضهم لتوسيع نطاقه فى الشرق وعلى ساحل «كجرات » فلم يلقوا فى ذلك نجاحاً كبيراً ، ولكنهم ظلوا أقوياء قادرين على امتلاك زمام الأمور فى الداخل .

وهكذا أصبحت للعرب علاقات سياسية وطيدة مع الهند بعد أن كانت علاقتهم قاصرة على النواحى التجارية قبل الإسلام . وفتح الباب على مصراعيه للتبادل العلمى والثقافى بين الهند والعرب .

عرف العرب قبيلتى الزُّط (جات) والميد من قبائل السند ، وانخرطت هاتان القبيلتان ولا سيما الزُّط فى جنود الإسلام . استخدمهم على بن أبى طالب لحراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، وأنزلهم معاوية فى مدن الشام الساحلية لمواجهة الروم ، وعمرهم الوليد ابن عبد الملك فى أنطاكية . وكان هذا قبل فتح العرب للسند .

وتيسر للعرب بعد فتح السند أن يعرفوا إلى جانب الزُّط المحاربة، السنديين وبخاصة بعد أن انتقل عدد كبير منهم إلى العاصمة وبعض المدن الكبرى ، وأخذ العرب يتتبعون خصائص وعادات هذا العنصر الجديد ، كما أقبل هؤلاء على الأخذ بأسباب الحضارة العربية ، فأسهموا فى الحوادث الجارية مساهمة فعَّالة .

ويروى ابن الأثير أن أحدهم ،وهو ابن زياد بن أبى كبشة اشترك فى قتل الخليفة الوليد بن يزيد فى سنة ١٢٦ هجرية . واندمجوا فى المجتمع العربى وظهر منهم علماء أجلاء ، أمثال أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن السندى وقد سمع عنه الواقدى بالمدينة ، وابن الأعرابى وكان أبوه زياد سندياًّ ، كما يذكر ياقوت فى معجمه . وظهر منهم من تولى الحكم مثل السندى بن شاهد مولى جعفر المنصور ، كان أميراً على دمشق فأخرب سورها فى فتنة أبى الهندام سنة ١٧٦ فى خلافة هارون الرشيد ، وولى القضاء ببغداد ، وكان للسندى هذا ابن يسمى : إبراهيم ،روى عنه الجاحظ كما جاء فى « البيان والتبيين » ، وكان منهم شعراء أمثال أبى عطاء السندى وأبى الأصلع المعروف بالسندى أو الهندى .

وتهيأت الأمور لاجتماع أهل العلم من الهنود والعرب بعد قيام الدولة العباسية ، وإخضاع منصور ابن جمهور الكلبى الذى كان قد اغتصب ولاية السند ، وضم ولاية السند إلى السفاح على يد موسى بن كعب التميمى فى سنة ١٣٤ هجرية . واقترن قيام العباسيين بنقل العاصمة إلى بغداد ، فازداد التقارب من السند جغرافياً .

ولم تكد الأمور تستقر فى الدولة العباسية ، حتى نرى وفداً من أهل السند يفد على السفاح ؛ وذلك قبل وفاته بثلاثة أيام .

وأخذت الأمور تستقر فى عهد المنصور ، واتجه إلى أهل العلم فى السند يطلب منهم العون ، وجاء أحدهم فى سنة ١٥٤ هجرية إلى بغداد ، وكان عارفاً بعلم الهيئة والرياضيات ، وتقدم إلى الخليفة بكتاب « سدهانت » السند هند ، الذى قام إبراهيم الفزارى بترجمته إلى العربية . وكان لمعرفة العرب بكتاب « سدهانت » فاتحة حسنة للتبادل العلمى بين الهند والعرب ، وعنه تعلَّم العرب الأرقام الهندية ؛ فالبابان الثالث عشر والرابع والعشرون من هذا الكتاب يحتويان على بسط تلك الأرقام وبيانها .

وجدير بالملاحظة أن الأرقام الهندية عرفت عند الإفرنج باسم الأرقام العربية ، لأنهم أخذوها بدورهم عن العرب أى عرب الأندلس . وسمَّاها عرب الأندلس أيضاً « حساب الغبار » ؛ لأن الهنود كانوا يرسمونها على التراب أو الرمل بدل اللوح لتعليم الصغار ، ولا يزال هذا شائعاً فى أرياف الهند .

وكان تقدير العرب لكتاب « سدهانت » حافزاً لهم على ترجمة كتابين فى علم الهيئة هما : « أرجبهذ » وفى الأصل (آربه بهت) وقد نقله إلى العربية أبو الحسن الأهوازى ، و « أركند » وفى الأصل (كهند إكهنديك) ونقله إلى العربية سنة ١٦١ هجرية يعقوب ابن طارق .

وعرف العرب براعة أهل الهند فى ميادين أخرى ، فنراهم يشيرون على هارون الرشيد إبّان مرضه باستقدام الطبيب الهندى « منكه » وفى الأصل (مانك) ، ونجح فى علاج الخليفة ، فحظى عنده ، وبقى يشرف على نقل الكتب من اللغة السنسكريتية ، كما يذكر ذلك إبن أبى أصيبعة .

ثم أخذ علماء الهند يجدون طريقهم إلى بغداد ، وأخذت العلوم الهندية طريقها إلى المكتبة العربية . وقد أشار ابن النديم فى الفهرست إلى هذا العصر بقوله :

« الذى عنى بأمر الهند فى دولة العرب يحيى بن خالد ، وجماعة البرامكة واهتمامها بأمر الهند وإحضارها علماء طبها وحكمائها »

والواقع أن البرامكة استخدموا جميع الوسائل لنقل العلوم والآداب الهندية إلى بغداد ، فنراهم يستقدمون « ابن دهن » ، ويعهدون إليه إدارة المستشفى المعروف باسمهم ، والإشراف على ترجمة الكتب من السنسكريتية . ويستقدم جعفر البرمكى الطبيب « صالح بهلة » إلى الرشيد لمعالجة ابن عمه إبراهيم بن صالح ، ويمنح « أبـّان » الشاعر جائزة قدرها مائة ألف درهم على نظمه قصة كليلة ودمنة .

وكان ليحيى بن خالد — حفيد أبى خالد — دور هامٌّ فى دعم الصلات بين الهند والعرب . نشأ فى بلاد كشمير وتعلم هناك « النجوم والطب وأنواع الحكمة » . وإليه يرجع الفضل فى إحضار علماء وأطباء من الهند أمثال « بهلة » و « منكة » و « بازيكر قلبرقل » و « سندباد » الذين أقاموا ببغداد . وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة . وعن هؤلاء وأمثالهم عرف العرب الطب والبلاغة عند أهل الهند .

ويذكر ابن النديم أن يحيى بن خالد أرسل رجلا فى مهمة علمية إلى الهند « ليأتيه بعقاقير موجودة فى بلادهم ، وأن يكتب له أديانهم » وأن التقرير الذى وضعه هـــذا المبعوث ظل المرجع الوحيد للعرب عن هذا الموضوع مدة قرنين حتى ظهر أبو الريحان البيرونى . وقد وقع فى يد ابن النديم نسخة من هذا التقرير مكتوبة « يوم الجمعه لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وأربعين ومائتين »

هذا هو فجر حركة نقل العلوم والآداب الهندية إلى العرب ، ولا شك أنها بدأت قوية ، ووضح للعرب مدى براعة الهنود فى العلوم والفنون المختلفة ، وذلك فى أوائل القرن الثالث الهجرى .